

الفكر العلمي والتطبيقي في العالم العربي في سبيل صياغة عربية خالصة

عَمرو جِلْمِي إبراهيم (*)

إِنْتَشَرَت اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِسُرْعَةٍ وَفَاعِلِيَّةٍ فَائِقَةٍ حِينَ إِنْتَشَرَت، لَأنَّهَا كَانَتْ الْجَدِيدَ الْمُبْتَكِرَ، وَلَأنَّهَا أَثْبَتَتْ، فِي فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ نَسَبِيًّا بِالنَّظَرِ إِلَى تَارِيخِ الْحَضَارَاتِ، قُدْرَتَهَا عَلَى إِسْتِيعَابِ وَإِعَادَةِ صِيَاجَةِ الثَّرَاثِ الْعِلْمِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ لِلْبَشَرِيَّةِ. وَلَمْ تَكُنْ إِعَادَةُ الصِّيَاغَةِ هَذِهِ مُجَرَّدَ تَرْجَمَةٍ أَوْ نَقْلِ أَوْ تَقْلِيدٍ؛ فَمَا قِيلَ وَكُتِبَ آنَذَاكَ قِيلَ وَكُتِبَ فِي قَالِبٍ عَرَبِيٍّ صَرَفٍ وَخِلَالِ جَوَارٍ مُسْتَمَرٍّ إِتَّخَذَ أحياناً شَكْلَ الْمَوَاجَهَةِ الْعَنِيفَةِ بَيْنَ الْقِيَمِ الْقَدِيمَةِ وَالْقِيَمِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي فَرَضَهَا الْإِسْلَامُ عَلَى الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ. ثُمَّ إِنَّ اسْتِمْرَارَ إِنْتِشَارِ وَرُسُوخِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دَاخِلِ الْأَرَاضِي الَّتِي فَتَحَهَا الْعَرَبُ وَخَارِجَهَا، كَانَ رَهْنًا بِالْقُوَّةِ الْفَاعِلَةِ النَّاجِمَةِ عَنْ اسْتِمْرَارِ ارْتِبَاطِ الصِّيَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْخَالِصَةِ الْمُجَدَّدَةِ بِالْقِيَمِ الْجَدِيدَةِ. وَيَجْدُرُ بِالذِّكْرِ هُنَا أَنَّ الْقِيَمِ الْجَدِيدَةِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا إِطَارًا عَامًّا جَدًّا يُنْظَمُ التَّطَوُّرُ وَيَحْمِيهِ مِنْ نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْمِيهِ مِمَّا هُوَ غَرِيبٌ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّ الرَّافِدَ الرَّئِيسِيَّ بِلِ الرُّوَاغِدِ الرَّئِيسِيَّةِ لِلْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ ذَاتِ الصِّيَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْخَالِصَةِ وَالَّتِي كَانَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ قَاسِمَهَا الْمُشْتَرَكِ الْوَحِيدِ، تِلْكَ الرُّوَاغِدِ لَمْ تَكُنْ فِي مُعْظَمِهَا عَرَبِيَّةً بَلْ وَلَمْ يَكُنْ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الَّذِينَ خَلَفُوا آنَذَاكَ لِلْبَشَرِيَّةِ عِلْمًا نَافِعًا وَبَاقِيًا كُتِبَ وَانْتَشَرَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَصْلِ عَرَبِيٍّ. وَلَمْ يَكُنِ السَّبَبُ هُوَ فَقَطِ الْقُوَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ أَوْ الْعَدَدِيَّةُ أَوْ السِّيَاسِيَّةُ لِلْعَرَبِ كَمَجْمُوعَةٍ عِرْقِيَّةٍ، بَلِ الْعَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ، فَسَرْعَانِ مَا أَصْبَحَ الْعَرَبُ كَمَجْمُوعَةٍ عِرْقِيَّةٍ مُتَجَانِسَةٍ قَلَّةً، بَلْ أَقَلِّيَّةً فِي الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ وَبِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّ الصِّيَاغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِنِتَاجِ الْفِكْرِ كَانَتْ خَالِصَةً لَدَرَجَةٍ يَصْعَبُ مَعَهَا فَصْلُ مَا هُوَ عَرَبِيٌّ عَمَّا هُوَ غَيْرُ عَرَبِيٍّ، لَيْسَ فَقَطِ فِي الْفِكْرِ بَلْ فِي النَّسِيْجِ الْعَامِلِ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ذَاتِهِ.

(*) أستاذ اللسانيات العامة والمقارنة بجامعة فرانكفورت كونيه ببيزانسون بفرنسا - قُدِّمَ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ فِي الْمَوْثَقِ السَّنَوِيِّ الرَّابِعِ لِجَمْعِيَّةِ لِسَانِ الْعَرَبِ الْمُتَعَدِّدِ يَوْمِي ١٥ وَ ١٦ نَوْفَمْبَرِ ١٩٩٧، بِمَقَرِّ جَامِعَةِ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ.

هذا عن الماضي، ولا أظنُّ أنَّ هناك خلافاً جوهرياً على هذه القراءة للتاريخ. فهل من نجاح مماثل للصياغة العربية في العصر الحديث؟ حتى يمكننا بمقارنة الحالين إستشفاف مقومات الإزدهار المتلازم للفكر واللغة في عالمنا العربي؟

الرد بالطبع بالإيجاب وإلاَّ ما تعرَّضتُ للموضوع، إلاَّ أنَّه لن يُعجب الكثير، فضلاً عما قد يرى فيه البعض من تأثر بمدخل أوروبي أميركي للمشكلة ظاهره منهجية لسانية واقعية وباطنه رغبة أكيدة في الإتيان على ما تبقى من صرح اللغة والثقافة العربية. لذلك التمس من القارئ شيئاً من الصبر ولا يتضرر من متابعة تسلسل الحجج حافظاً حكمة إلى نهاية المطاف.

إنتشار العامية المصرية: الظاهرة المتميزة لتطور اللغة العربية في القرن العشرين

إن أكبر نجاح حديث لصياغة عربية هو الإنتشار غير المسبوق تاريخياً في عالمنا العربي لفهم اللهجة المصرية نتيجة إنتشار الأغنية والفيلم المصري، سواء في المشرق أو المغرب العربي. وهي ظاهرة قريبة في مقوماتها من ظاهرة انتشار الإنكليزية بين الشباب عموماً وبين شرائح واسعة من المجتمع في عدة بلدان أدت فيها الظروف التاريخية والاجتماعية واللغوية إلى وجود قابلية لنمط الحياة ونوعية الثقافة التي تُروج لها الافلام والاغاني الأميركية.

وقد يرى البعض أنَّ في مقارنة العامية المصرية بالعربية الفصحى شيئاً من الوقاحة، ولعلمهم على حق إذا كانوا قد فهموا أنني أساوي بين مكانة العربية في أوج عصور الحضارة العربية ومكانة اللهجة المصرية في عصرنا الحديث. إن المقارنة لا تتعدى بعض سمات النجاح لنوعيات من الصيغ اللغوية في ظروف معينة بغرض بلورة مقومات الرعاية الفعالة للغة العربية في عصرنا. كذلك فإن المقارنة لا تستقيم إلاَّ بعد سرد بعض الملاحظات حول طبيعة اللغة وطبيعة علاقتها بالحرية.

إن كانت القدرة على اختيار الشيء أو تركه أول تعبير مباشر عن ممارسة الحرية، فإنَّ اللغة تبدو لأول وهلة وكأنها نوع من السجن، إذ يكاد يستحيل تركها، ولا يجدي كثيراً إبدالها بغيرها طمعاً في مزيد من الحرية، فكلُّ اللغات تفرض قيوداً من نفس النوع. ولو إفترضنا أنَّ بعض القيود أخف في نظر إنسان من قيود أخرى فالانتقال من لغة إلى أخرى مع الاحتفاظ بحرية الحركة ليس متاحاً إلاَّ لقلَّة من الناس. ما سبب ذلك؟ ما الذي يمنح الإنسان من الخروج من اللغة؟

الخروج من اللغة مُستحيل لأنَّ وصف اللغة وملاحظتها وتحليلها ورصد تطوراتها لا يتمُّ إلاَّ باللغة، لأنَّ اللغة هي الكيان الوحيد الذي لا يعبر عنه إلاَّ به. ويترتب على ذلك، أي كونه الواصف من الموصوف واستحالته انفصال الناقد عن المُنتقد، أنَّ الإنسان مهما

اجتهد ليكون حديثه خالياً من أي رأي مُسَبِّق ومن أي انحياز أو انفعال لا يَرْتَضِيهِ العقل المُجَرَّد لن يَسْلَمَ من أشكال وأنماط لُغَوِيَّة لا يستقيمُ التَّعبيرُ من دونها. تلك الأشكال والأنماط تَحْمِلُ في طَيَّاتِها دائماً الكثير من المُسَلِّمات التي لَصِقَتْ بها من خلال تَبَلُّور قيمَتِها الدلالية والتي تَفْرِضُ على المُتَكَلِّمِ، رَضِيَّ أم لم يرض، أن يعالج الأمور من زاوية مُعَيَّنة وبترتيب مُعَيَّن للأولويات التي يَتَمَخَّصُ عنها المَعْنَى. هذا فضلاً عن أنَّ إختلاط الواصف بالموصوف والنقد بالمنتقد يوقع المُتَكَلِّمِ في شِرَاك إنْتِمَاء لِلْغَةِ قَدْ لا يعبّر بالضرورة عن إنْتِمَاءِته الفكرية والسياسية والعاطفية.

فلنأخذ مثالين: أوْلُهُما بسيط لا أَظُنُّهُ مَثَارَ خِلاف، وثانيهما أكثر تعقيداً وحساسيةً، إلاَّ أن كليهما يجمع بين مشكلة المُسَلِّمات ومشكلة الانتماء.

دَرَجَتِ الصحافة الغربيَّة الناطقة بالفرنسية أو الإنكليزية أثناء حرب الخليج على وصف الدول التي ضَرَبَت العراق عسكرياً بـ The allies أو The allies، وهذا أمرٌ يبدو طبيعياً. فالدول التي هاجمت العراق كانت بالفعل دولاً متحالفة. كُلُّ ما في الأمر أن هذا التعبير لم يكن قد اسْتُخْدِمَ في هذا السياق وعلى هذا النطاق منذ الحرب العالمية الثانية، ممَّا جعل المُتَكَلِّمِ بِهِ والمُسْتَمِعَ لَهُ يَضَعُ ألياً العراق في مَوْقع ألمانيا النازية، ممَّا يَقْطَعُ الطريق على الأقل في المُجْتَمَعات الغربيَّة على أي مناقشة لاحقة للموضوع. فالدفاع ولو بالكلمة عَمَّنْ هو في مَوْقع ألمانيا النازية جريمة يعاقبُ عليها قانون هذه المجتمعات عقاباً شديداً. إِنَّ مُجَرَّدَ استخدام تعبير Les alliés أو The allies في وصف الدول المواجهة للعراق يُفِيدُ ضِمْناً بالتسليم بأنَّ قَصف العراق والشعب العراقي عَمَلٌ دفاعي مشروع، وأَنَّهُ يَجُوزُ في العراق ما جاز في من كانوا في مَوْقِعِهِ من الألمان واليابانيين كَهَدم Dresden عن آخرها وإبادة مائتين وخمسين ألفاً من سُكَّانِها في شَهْرٍ واحد أو إلقاء قُنْبلة نووية على هيروشيما لإقناع الحُكُومة اليابانية بالتسليم.

المثال الثاني أكثر تعقيداً، ولعلَّه يُثِيرُ بَعْضَ الحساسيات كما سَبَقَ أن بيَّنا.

تَصِفُ العربُ وتَصِفُ اللُّغة العربيَّة نوعيَّةً من البَشَر لا تُفَسِّسُ الحياة، بل ولا تُعَيِّرُها أحياناً أي احترام، وبالتالي لا تُعَبِّأُ بِحُرِيَّةِ الغير ولا تُقَرُّ مبدأ إختلاف القِيمِ والمصالح، وتؤمن بأنَّ العُنف كَفِيلٌ بحسم كلِّ المشاكل والتناقضات بالغُلاة أو المُتَطَرِّفين أو الإرهابيين، وأنَّ ما يَفْعَلُونَهُ غُلُوٌّ أو تَطَرُّفٌ أو إرهاب. ولا تَرِبُّ اللُّغة العربيَّة وصفها هذا باعتناق فكر أو دين أو عَقِيدَةٍ مُعَيَّنة. الإرهابُ أو التطرفُ أو المغالاة درجة أو نوع من العُنف وإدانتُهُ تَنْصَبُّ عليه وعلى ما تتطوي عليه ممارسة هذا العُنف من إهدار لِقِيَمٍ عامة يُفْتَرَضُ ضِمْناً أنَّها مَحَلٌّ إجماع. أمَّا اللُّغة الفرنسيَّة فقد اخْتَصَّتْ فريقاً من هذه النوعية البَشَرِيَّة أَسْمَتُهُ Intégristes، وبهذه الكلمة التي تستَحِيلُ تَرْجَمَتُها إلى العربيَّة أَقْحَمَتِ الفرنسيَّة في مَعْنَى الإرهاب أو التطرف أو المغالاة، ليس فقط الدين بل الممارسة المُتكامِلة للدين أو ممارسة الدين كنظام متكامل يَفْقُدُ هُوِيَّتَهُ إذا عَطِلَ أحد أركانهِ. وقد انتقلت معاني الإرهاب المُسَلَّح المُرافقة لمعاني التَّعَصُّبِ الديني

إلى هذه الكلمة بشكل تدريجي، مُنذ بداية هذا القرن، حيث أُطْلِقَت Intégriste أولاً على أفرادِ جِزْبِ إسباني نادى بخضوع الدولة للكنيسة ثم اتَّسع المعنى في منتصف القرن حين اشْتُقَّت كلمة Intégrisme إلى كلِّ من ينادي بتطبيق نظام ما بالكامل (فـ Ingéral معناه بالكامل) ثم انحصَرَ في الاستعمال الفعلي في الكاثوليك المُنادين بتطبيق كل تعاليم الدين المسيحي، بصرف النظر عن ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للعصر، أمّا الآن فيكاد لا يُطْلَقُ إلاّ على المُسلمين. أُطْلِقَ أولاً على الذين يُمارسون مِنْهُم العُنف السياسي وأخيراً على أي مُسلم يُبدي تَمَسُّكاً ظاهراً بتعاليم دينه أياً كان مَوْقِفُهُ من الإسلام السياسي. وقد أدَّى هذا التطور الدلالي للكلمة إلى تَرْسيخِ أربعِ مُسَلِّماتٍ مُرتَبِطة باستخدامها:

1 - الإرهاب مُرتَبِطٌ إرتباطاً وثيقاً بالعقيدة عموماً وبالدين خصوصاً.
2 - الدين في عصرنا هذا هو غالباً الإسلام وفي حالات قليلة وشاذة المسيحية أو اليهودية.

3 - المُسلمون الذين يُمارسون دينهم ممارسةً غير مَنقوصة إرهابيون.

4 - المُسلم المُسالِم المُستَثير المُتَحَضِّرُ هو الذي يؤتي كَماً مَعْقُولاً من المُحَرِّمات.

ومن الطريف مقارنة الفرنسية بالإنكليزية في هذا الصدد. فالإنكليزية اختارت كلمة مَتَخَصِّصَة يمكن ترجمتها إلى العربية، وإن لم تؤدِّ نفس المعنى لوصف المتمسكين بما يَعتَبِرونَهُ أصلاً لا يستقيم من دونه الدين وهي Fundamentalism/أصولية ولا تتعدى الكلمة الإنكليزية حدودها لتشمل التعريف العام بالعنف والتعصب كما هو الحال مع كلمة Intégrisme الفرنسية، ولعل السبب المباشر في ذلك أن البلدان الأصلية للناطقين باللغة الإنكليزية كبريطانيا وإيرلندا والولايات المتحدة الأميركية لم تَتَّخِذْ أبداً مَوْقِفاً معادياً للدين والفكر الديني عموماً كما هو الحال في فَرَنَسَا.

من هنا يتأتى أن يكون مجرد اختيار لغة ما في الحديث وانتخاب بعض تعبيراتها بقصد أو بغير قصد بمثابة إعلان عن تَبَيَّنِي نَظَرَة وشهادة انتماء للفكر الضماني الذي تُرَوِّجُ له اللغة المُستَخدمة. تبعاً لذلك يَصْعَبُ على المتكلم بلغة ما أن يُعَبِّرَ عن رَفْضِهِ لهذا الانتماء دون أن يبدو وكأنه يُعاني من انشطارٍ أو انفصالٍ في الشخصية.

هل معنى ذلك أن حرية التعبير خارج الإطار الذي تفرضه على الإنسان من خلال لغته ظروف بيئته وثقافته مستحيل؟ بالطبع لا. فطالما كانت الحرية الأصلية درباً من التفاوض مع قوانين الطبيعة وضغوط المجتمع. ومن دروب هذا التفاوض في مضمار اللغة دربان: أولهما، الوعي الكامل بما تُفرِّزه اللغة من مُسَلِّماتٍ لِيَتَسَنَّى تحليلها والحد من فاعليتها الدلالية، وثانيهما الاستغلال، الذكي لمُستويات الخطاب والعمد إلى خَلْقِ صِيغٍ جديدة للتعبير.

يَرْحَرُ أدبنا الرفيع بَنَمَازِجَ شَتَّى للدرب الأول، فلعل الخاصية الأولى للإبداع الفني التي لا يَخْتَلِفُ عليها اثنان أنه يَخْرُجُ بأسلوبه المُحَكَّم عن نَمَطِيَّة اللغة وعن الدلالات

المتعارف عليها، ليسلك في بناء المعنى سبلاً تُعيدُ لنظرة القارئ شبابها وتجددُ نشاطه الذهني. هذا حين يتعلّق الأمر بالعربية؛ إلا أن أحداً لحد علمي لم يتعرّض للموضوع إذا تعلّق باللغات الأجنبية التي نَقِلُ منها كالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية، أي حين يُطلَبُ من الناقل أن يَصْمَنَ المعاني التي يَنَقِلُها التحليل الذي يَحْمي القارئ من آثارها الجانبية.

أما الدرب الثاني للتفاوض للخروج من قبضة اللغة، فقد صَرَبَ له المُجْتَمَع المصري ومثاليّن على الأقل: الأول بما يُمكن أن تُسمّيه اليوم بالخطاب الناصري، والثاني بخطاب النكتة أو الأفشه، أو بشكل أعم بخطاب السخرية.

الخطاب الناصري جدّد وبَلَوَرَ اللغة العربية السياسية الحديثة، ليس فقط بنشر بعض الكلمات، ولكن ببناء سياق جديد لهذه الكلمات كان كفيلاً بأن يجعلها مفهومة إلى حد بعيد لمُعظم الناطقين بالعربية. وقد اتَّسَمَ الخطاب الناصري الذي كان له أثرٌ خطير على لغة الصحافة العربية في مجملها بخلط مدرّوس بين الفصحى واللهجة المصرية. وكان هذا الخلط الذي ربما ظهر داخل الجملة البسيطة ذاتها، بل من خلال النطق بالكلمة الفصيحة بمثابة تطعيم مُثير للغة العربية^(١). لم يكن أبداً انعطافاً بمُسْتَوَاهَا أو تَدَنِّيَا في استخدامها. ولعلّ أبلغ حجة على ذلك أن الخطاب الناصري لم يكن فقط مفهوماً للجميع، ولكنه كان خطاباً جامعاً بمعنى أنه في وقت محدود لا يتعدى بضع سنوات، قرّب تقريباً غير مسبوق بين الصيغة والدلالة في التراث اللغوي المشترك لكل العرب. صحيح أن أثراً مماثلاً وإن كان أضعف كان يُمكن التماسه في خطب مصطفى باشا النحاس إلا أن خطاب النحاس لم يخرج عن مصر ولم يدخل الإذاعة المسموعة والمرئية كما دخلها الخطاب الناصري، فقد واكب انتشار الخطاب الناصري الحقبة الأخيرة والأخطر أثراً للعصر الذهبي للإذاعة المسموعة، وكذلك الحقبة الأولى لتاريخ الإذاعة المرئية، تلك التي أحدثت بكل المعايير إحدى أشد الصدمات الاجتماعية والنفسية للمجتمعات الحديثة. كذلك فإن الخطاب البعثي الذي تزامن لمدة طويلة مع الخطاب الناصري ذاب فيه لغوياً وثقافياً فقد كان في خطوطه العريضة مشابهاً له في المضمون، وإن تنافس أو اختلف معه في بعض النقاط الفرعية، كما أنه لم يتبلور في شخصية لها وزن جمال عبد الناصر ولم يحظَ في مهده بالقاعدة العريضة التي حملت طويلاً الرئيس المصري الراحل.

أما عن خطاب السخرية فله شقان: عبقرية التَهَكُّم على السلطات كافة وبالأخص تلك التي تَفْتَقِدُ الشرعية الطبيعية التي لا تُكْتَسَبُ إلا بإجماع الأمة وعبقرية الدعابة بما

(١) انظر: Amr Helmy IBRAHIM: «Niveaux de langue et communication sociale en Egypte, le discours politique du rayés». *Peuples méditerranéens*, n°5, oct-déc. 1978, Paris [BP 1907/75 327- Paris Cedex 07].

تَقَدَّرْضُهُ مِنْ سُرْعَةِ الْبَدِيَّةِ وَخِفَّةِ الرُّوحِ وَنَفَازِ النُّظَرَةِ النَّاقِدَةِ، تِلْكَ الْعَبْقَرِيَّةُ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ عَبْقَرِيَّةِ الْمَكَانِ الَّتِي أَفَاضَ فِي تَحْلِيلِهَا الْجُغْرَافِي الرَّاحِلَ جَمَالَ حَمْدَانَ فِي عَمَلِهِ الرَّائِعِ «شَخْصِيَّةٌ مِصْرِيَّةٌ: دَرَاةٌ فِي عِبْقَرِيَّةِ الْمَكَانِ»⁽²⁾. فَمَا إِسْتَهْزَ بِهِ الشَّعْبُ الْمِصْرِيُّ عَلَى مَدَى فَنَرَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنَ التَّارِيخِ مِنْ حُبِّ الدَّعَابَةِ وَخِفَّةِ الرُّوحِ وَسُرْعَةِ الْبَدِيَّةِ وَنَفَازِ «الْأَفْشَه» يَرْجِعُ إِلَى مُنَاحٍ عَامٍ وَسُلُوكٍ جَمَاعِي بِقَدَرٍ مَا يَرْجِعُ إِلَى عِبْقَرِيَّةِ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ.

وَلَيْسَ الْإِمْتِثَالُ بِأَسَالِيبِ الْإِضْحَاقِ عَشْوَائِيًّا، فَالْإِضْحَاقُ عَمَلِيَّةٌ مُتَكَامِلَةٌ تُعْبِئُ مَجْمُوعَةً هَائِلَةً مِنَ الْقُدْرَاتِ، وَلَا تُحَقِّقُ نَتِيجَةً إِلَّا إِذَا لَتَقَى وَتَجَانَسَ فِيهَا، الْبُعْدُ الْفَرْدِي وَالْبُعْدُ الْجَمَاعِي. فِي الْإِضْحَاقِ أَبْدَاعٌ وَإِثَارَةٌ لِلْفِكْرِ وَتَحَوُّلٌ لِلنَّفْسِ. فَالْتَّوَصُّلُ إِلَى الصِّيَاغَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُبْتَكِرَةِ الَّتِي تَدْفَعُ بِمَنْ يَسْمَعُهَا إِلَى أَنْ يُفَرِّجَ أَسَارِيرَهُ وَيَقْرَ وَلَوْ بُرْهَةً بِضَجِّهِ أَوْ حَتَّى بِمَجْرَدِ ابْتِسَامِهِ بِخَصَافَةِ الْفِكْرَةِ وَمَلَاءَمَتِهَا لِلشَّكْلِ الَّذِي اخْتَارَتْهُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ نَفْسِهَا يَفْتَرِضُ أَنَّ الْمَوْقِفَ تَوَافَرَتْ لَهُ ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ:

1 - الْمَفْاجِئَةُ وَالْبَهْجَةُ الَّتِي يُثِيرُهَا اكْتِشَافُ عِلَاقَةٍ جَدِيدَةٍ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ تَبْدُو طَبِيعِيَّةً، وَإِنْ كَانَتْ حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةُ خَفِيَّةً. وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ التَّعْرِيفُ الْأَبْسَطُ وَالْأَمْتَلُ لِأَهَمِّ الْاِكْتِشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ كَشْفًا لِعِلَاقَةٍ مُوجُودَةٍ مِنْذُ الْأَزَلِّ وَإِنْ لَمْ نَكُنْ نَرَاهَا.

2 - الْاِتِّفَاقُ الْخِيَمِي بَيْنَ مَجْمُوعَةِ الْمُبْتَهْجِينَ عَلَى أَنَّ الْوَسِيلَةَ الْمُسْتَحْدَمَةَ هِيَ الْوَسِيلَةُ الْمُتَمَثِّلُ لِلْوُصُولِ إِلَى الْهَدَفِ الْمَنْشُودِ، وَأَنَّ الْجَمَاعَةَ تَنْقَاسِمُ نَفْسَ الْمُسَلِّمَاتِ، أَيْ أَنَّهَا تَسْتَنْبِطُ الْمَعَانِي نَفْسَهَا مِنَ الصِّيَغِ وَالْأَشْكَالِ نَفْسَهَا فَهِيَ حِينَ تَبْتَهِجُ جَمَاعِيًّا نُقْرُ أَنْ لَهَا تَارِيخًا وَثَقَافَةً وَإِحْسَاسًا مُشْتَرَكًا.

3 - قُبُولُ بَلِّ اِعْتِنَاقِ الْمُبْتَهْجِينَ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْقِيَمِ تَسْمُو عَلَى مَا قَدْ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ مِنْ مَوَاقِفٍ وَاتِّجَاهَاتٍ فِي مُخْتَلَفِ مَجَالَاتِ الْفِكْرِ وَالْحَيَاةِ اِلْاجْتِمَاعِيَّةِ.

الْقَاسِمُ الْمُشْتَرَكُ إِذْنِ بَيْنِ الْخُطَابِ السِّيَاسِيِّ فِي قَالِيهِ النَّاصِرِيِّ وَخُطَابِ السُّخْرِيَّةِ فِي قَالِبِ النُّكْتَةِ، سَوَاءٌ فِي شَكْلِهَا الْمُبَاشِرِ حِينَ يُنْطَقُ بِهَا فِي مَجْلِسٍ مَا أَوْ فِي أَشْكَالِهَا غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ كَامْتِزَاجِهَا بِالْكَارِيكَاتِيرِ فِي اِنتَاجِ الثَّنَائِيِّ الْمَشْهُورِ أَحْمَدَ رَجَبٍ/مُصْطَفَى حُسَيْنٍ، أَوْ كَتَحَوُّلِهَا إِلَى مَلَاخَظَةٍ قَصِيرَةٍ مَكْتُوبَةٍ تَفْرِضُ عَلَى نَفْسِهَا إِطَارًا ثَابِتًا كِبَابِ

(2) انظر: Amr Helmy IBRAGIM: «La caricature politique en Egypte», Images d'Egypte: de la fesque à la bande dessinée, CEDEJ, 1991, Le Caire [BP 494, 14 rue Gamiat al-Nisr - Dokki - GUIZA/LE CAIREL].

وكذلك Amr Helmy IBRAHIM: «La nokta égyptienne ou l'absolu de la souveraineté», L'HUMOUR EN ORIENT, Revue de Monde Musulman et de la Méditerranée, n° 77/78, 1995, Aix-en- Provence, Edisud.

«1/2 كَلَمَهُ» في جريدة «الأخبار» اليومية، القاسِمُ المُشْتَرَك بين الخُطابَيْن أنَّهُمَا جامعان وأنَّهُمَا يَجْمَعان بين الجَمْع والإبتكار.

وما يُقال عنهما يُمكن قَوْلُهُ دون اختلاف كَبِير في بِنْيَةِ التحليل عن القِطاع الأكبر لخطاب الأغنية المصرية، سواء ما يَنْعَثُهُ بها المُصَنَّفون المُخْتَرِفون بِأَنَّهُ مَرْجِعِي أي بالتَّعْرِيف الأوروبي «كلاسيكي» أو كُنْتَاج شَعْبِي⁽³⁾ يتطاول بَعْضُ النُّقَاد النَّمَطِيِّين عليه بَوْصْفِهِ هَاطِطاً. وَنَعْنِي بالنَّاقِدِ النَّمَطِي النَّاقد الذي يَسْتَسْهِلُ، تَجَنُّباً لِإِصْدَاعِ التَّحْلِيلِ، تَرْديدَ أَحْكامٍ لا تُعَبِّرُ بالزُّرورة عن مَوْقفٍ وَّاعٍ أو مَصْلَحَةٍ مَفهُومَةٍ لِقَائِلِهَا، وَإِنَّمَا تَضُمُّ صَوْتاً إِلَى صَدَى فَتُصْبِحُ المَقُولَةُ مُسَلِّمَةً من غَيْرِ فُطْنَةٍ إِلَى ما يَدْعُمُهَا مِنْ حُجَّةٍ أو سَنَدٍ.

خُطابُ الأَغْنِيَةِ المِصرِيَّةِ جَامِعٌ عَرَبِيٌّ فِي مُجْمَلِهِ، بِالرَّغْمِ مِمَّا فِيهِ أحياناً من خُصوصِيَّةٍ مِصرِيَّةٍ تَتَبَلَّوَرُ أساساً في الأَعْيَبِ لُغَوِيَّةٍ قَدْ يَبْدُو فَهْمُهَا مُنْغَلِقاً على مَنْ يَجْهَلُ دَقَائِقَ اللُّهْجَةِ المِصرِيَّةِ، لأنَّهُ خُطابٌ تَتَجَدَّدُ قَوَالِبُهُ الفَنِّيَّةُ دون أن تَقْطَعَ صِلَتَها بِمِصْادِرِها اللُّغَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ الصَّرْفَةِ الَّتِي هِيَ بِمِثَابَةِ العَمُودِ الفَقْرِيِّ لِلهُوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، وَالَّتِي تُشْكَلُ البِنْيَةُ التَّحْتِيَّةُ الَّتِي تَحْكُمُ الأسْلُوبَ الَّذِي تُعَبِّرُ بِهِ الأصالةُ العَرَبِيَّةُ عن نَفْسِها. وَيُعْتَبَرُ هَذَا الخُطابُ إِمْتِدَاداً طَبِيعِيّاً لَخُطابِ الشَّعْرِ العَرَبِيِّ، سِوَاهُ فِي عَصْرِهِ الجَاهِلِيِّ أو فِي عَصْرِهِ الإِسْلامِيِّ، وَبِشَفِيهِ البَلَاغِيِّ وَالْقَصَصِيِّ، أَي كَادَاةٍ مِخْوَريَّةٍ لِلتَّعْبِيرِ عن الحَالِ وإِعادةِ تَوْزِيعِ الأدْوارِ إِحتِسَاباً لَدَوْرِ صَاحِبِ الخُطابِ.

يَبْقَى أَنْ نُكْرِّرَ، أَنَّ تِلْكَ المَقُومَاتِ الجامِعةَ لِخُطابِ صَادِرٍ بِلَهْجَةٍ من لَهْجَاتِ العَرَبِ نَجِدُها على المِثَالِ نَفْسَهُ وبِالأَثَارِ نَفْسِها فِي الخُطابِ الشَّعْبِيِّ وَالْعَالَمِيِّ لِلُّغَةِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ. وَتَبِعاً لَذلكَ فلا عَجَبَ إِنْ كانَ هَذَا الخُطابُ هُوَ المُنافِسُ الرَّئِيسِيُّ، جَنْباً إِلَى جَنْبٍ معَ الخُطابِ الشَّعْبِيِّ الفَرَنْسِيِّ فِي المَغْرِبِ العَرَبِيِّ، لِلخُطابِ العَرَبِيِّ الشَّعْبِيِّ الصَّادِرِ بِاللُّهْجَةِ المِصرِيَّةِ.. وَلا مَنَاصَ هُنا مِنَ الاعْتِرَافِ بِنِقاطِ ضَعْفِنا العُضُويَّةِ فِي المَعْرَكَةِ الدَّائِرَةِ وَالَّتِي سَتَسْتَدُّ فِي السَّنَوَاتِ المُقْبِلَةِ. فَالصِّيَاغَةُ العَرَبِيَّةُ المُبْتَكِرَةُ بَلْ أحياناً الصِّيغَةُ العَرَبِيَّةُ ذَاتِها تُكَادُ أَنْ تَكُونَ غائِبَةً فِي أَرْبَعَةِ مَجالاتٍ اتَّخَذَتْ أَهمِيَّةً حَيَويَّةً وَمُتَزَايِدَةً فِي حَيَاةِ الشَّعْوبِ مُنْذُ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ هِيَ:

- 1 - التِّجَارَةُ العَالَمِيَّةُ والمَجالاتُ المَرْتَبِطَةُ بِها مِنْ تَسْويِقٍ وإِعلانٍ.
- 2 - الرِّياضَةُ البَدَنِيَّةُ وما نَمَّا حَوْلَها مِنْ أنْشِطَةٍ بَدَلَتْ أَساليبَ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ فِي جَمِيعِ البِلادِ المُتَقَدِّمَةِ.
- 3 - الثَّقافةُ المُرتَبِطَةُ بِالاختِراعاتِ الجَدِيدَةِ وتأثيرِها على آلاَتِ وآليَّاتِ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ.

(3) نَتَّفِقُ بِغَيْرِ ادْنَى تَحَفُّظٍ معَ ما جَاءَ فِي مَقالِ الأَسْتاذِ عَبدِ الباسِطِ مُحَمَّدِ عَبدِ المَعطِيِّ تَحْتَ عَنوانِ «مَنْ إِبْداعِ المُستَضْعَفينَ فِي القَرِيَةِ المِصرِيَّةِ»، فِي العَدَدِ 87 مِنْ مَجلةِ الفِكرِ العَرَبِيِّ (شِتااء 1997) بِخُصوصِ الثَّقافةِ الإِبْداعيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ.

4 - البَحْثُ الْعِلْمِيُّ الْمُجَدَّدُ فِي جَمِيعِ فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ دُونَ إِسْتِثْنَاءٍ.

وَجَدِيرُ بِالْمَلاحِظَةِ أَنَّهُ لَا يَنَاقِشُ إِلَّا لِهَجَّةٍ عَرَبِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ أَنْ تَفْرَضَ نَفْسَهَا فِي هَذِهِ الْمَجَالَاتِ، فَهِيَ وَلِيدَةٌ مُؤَسَّسَاتٍ يَنْوِءُ بِدَعْمِهَا كَثِيرٌ مِنَ الدُّوَلِ الْكُبْرَى. إِنْ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ تُعَدُّ الْحَقْلُ الطَّبِيعِيُّ لِلْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الْمُشْتَرَكَةِ سِوَاهُ فِي مُسْتَوَاهَا الْفَصِيحِ أَوْ الْأَوْسَطِ، اللُّغَةُ الَّتِي يَكْتُبُ بِهَا كُلُّ النَّاظِقِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَقَدْ يَقُولُ الْبَعْضُ أَنَّ عُذْرَنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَجَالَاتِ الْأَرْبَعَةَ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ حِكْرًا عَلَى اللُّغَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ، وَأَنْ ضَعْفُنَا فِيهَا عِلْمًا بِمَا أَصَابَنَا مِنْ هَزَائِمٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَإِنْجِطَاطٍ حَضَارِيٍّ عَلَى مَدَى قُرُونٍ طَوِيلَةٍ لَيْسَ أَسْوَأَ مِنْ ضَعْفِ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ أُخْرَى فِي تِلْكَ الْمَجَالَاتِ. وَقَدْ يَبْدُو هَذَا الْعُذْرُ مَنَطِقِيًّا وَمَقْبُولًا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، إِلَّا أَنْ تَصْنِيفًا سَرِيعًا لِأَحْوَالِ اللُّغَاتِ فِي الْعَالَمِ يَأْخُذُ فِي الْإِعْتِبَارِ مَدَى إِرْتِبَاطِهَا النُّوعِيِّ وَالْكَمِّيِّ بِثَقَافَةٍ وَدِينٍ وَهَوِيَّةٍ وَمَشْرُوعٍ حَضَارِيٍّ، قَدْ يَقْطَعُ عَلَيْنَا طَرِيقَ الْإِتِمَاسِ بِالْعُذَارِ، إِذْ إِنَّ لَدَيْنَا، أَرَدْنَا أَمْ لَا، مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ الَّتِي يَطْمَحُ فِيهَا غَيْرُنَا مَا يَجْعَلُ إِزْدِيَادَ ضَعْفُنَا كَفِيلًا بِمَحْوٍ وَجُودِنَا.

تَصْنِيفُ إِجْتِهَادِيٍّ لِلُّغَاتِ وَاسِعَةِ الْإِنْتِشَارِ، مِنْ حَيْثُ حَيَوِيَّتُهَا وَإِمْكَانِيَّاتُهَا الْمُسْتَقْبَلِيَّةُ

لَا تَتَمَتَّعُ كُلُّ اللُّغَاتِ الْوَاسِعَةِ الْإِنْتِشَارِ، وَمِنْهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، بِالدرَجَةِ نَفْسَهَا مِنَ الْحَيَوِيَّةِ، خُصُوصًا إِذَا اعْتَبَرْنَا أَنَّ تَوَافُرَ تِلْكَ الْحَيَوِيَّةِ مَرْهُونٌ بِاسْتِيفَاءِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الشُّرُوطِ:

- 1 - إِزْدِيَادُ عَدَدِ النَّاظِقِينَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ بِشَكْلِ مُنْتَظَمٍ عَلَى مَدَى فِتْرَةٍ رَمَنِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى اسْتِيعَابِ مَا لَا يَقُولُ عَنْ ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ.
- 2 - إِقْبَالُ الشَّبَابِ مِنْ غَيْرِ النَّاظِقِينَ بِهَا عَلَى تَعَلُّمِ تِلْكَ اللُّغَةِ وَاسْتِخْدَامِهَا.
- 3 - وَجُودُ نِتَاجٍ عِلْمِيٍّ وَأَدْبِيٍّ مَكْتُوبٍ بِهَذِهِ اللُّغَةِ يَزْدَادُ كَمًّا وَنَوْعًا.
- 4 - اسْتِخْدَامُ هَذِهِ اللُّغَةِ كَأَدَاةٍ لِلتَّوَاصُلِ فِي رُقْعَةٍ جُغْرَافِيَّةٍ مُتَّسِعَةٍ أَوْ مَائِلَةٍ لِلِإِتْسَاعِ.
- 5 - إِزْدِيَادُ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي مَجَالَاتِ لَهَا أَهْمِيَّةٌ رَمَنِيَّةٌ أَوْ كَفِيلَةٌ بِتَوَلِيدِ فَائِضٍ قِيَمَةٍ يَصْبُو بِاللُّغَةِ فَوْقَ حَاجَتِهَا الْمَادِي الْفِعْلِيِّ فَيَرْفَعُ مِنْ شَأْنٍ مَنْ يَنْطِقُ بِهَا، كَاسْتِخْدَامِهَا فِي صِيَاعَةِ أَفْكَارٍ أَوْ تَعْبِيرَاتٍ أَوْ رَدُودِ فِعْلٍ لُغَوِيَّةٍ تَسُودُ تَدْرِيجًا السُّلُوكَ اللَّغَوِيَّ لِمُجْتَمَعَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، بَلْ وَمُتَنَافِرَةٍ لَا تَسْتَعْمَلُ بِالضَّرُورَةِ هَذِهِ اللُّغَةَ اسْتِخْدَامًا يَوْمِيًّا أَوْ قَوْمِيًّا أَوْ رَسْمِيًّا.
- 6 - إِرْتِبَاطُ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ اللُّغَةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ بَارْتِفَاعِ مَكَانَةِ الْمُتَكَلِّمِ كَأَنَّ مُجَرَّدَ النُّطْقِ بِهَا يُعِيرُ الْمُتَحَدِّثَ مَزِيدًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْدِيَّةِ أَوْ مِنَ الثُّورَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ مِنْ كِلَيْهِمَا.

7 - ضرورة استخدام هذه اللغة دون سواها حيث هي لغة قومية، بل وخارج نطاقها القومي لِقضاء حاجيات لا غنى عنها، سواء كان ذلك في المُعاملات المالية أو الاجتماعية أو خلال إكتساب العُلْم والمَعْلومات.

إذا كُنَّا مُتَفَقِّين على سَداد المَعايير السبعة السالفة، وكان لنا أن نُصنِّف لُغات العالم الواسعة الانتشار من حيث حيويتها فلعلنا نوزَّعُها على أربع مجموعات:

المجموعة الأولى، وهي المُستَوَفية للسبعة شروط، لا تحتوي حالياً إلا على لغة واحدة هي الإنكليزية. وهذا وَضَعٌ حديث نسبياً وغير مَسْبُوق، إذ لا يُشير التاريخ الموثق للبشرية عن إنتشار لُغةٍ واحدة في كلِّ بِقاع الأرض المأهولة على النَحْو الذي تَنْتَشِرُ به الإنكليزية اليوم.

المجموعة الثانية، تَضُمُّ لُغات لا تَسْتوفي مُطلقاً شَرْطاً أو شَرْطين من السبعة وقد لا تستوفي شرطاً ثالثاً استيفاءً كاملاً، ومن هذه اللغات الفرنسية والإسبانية من ناحية والألمانية والإيطالية واليابانية والروسية من ناحية أخرى.

المجموعة الثالثة، تَضُمُّ لُغات لا تستوفي بشكل كامل إلا ثلاثة شروط، وقد تستوفي أحياناً شرطاً رابعاً مثل العربية ولهجاتها والصينية ولهجاتها والهندوستانية والأردية والبنغالية. فالعربية مُستوفية للشروط 1 و4 و7 كما أنها مُستوفية في بَعْض الظروف للشرط الثاني أو السادس.

المجموعة الرابعة، تَضُمُّ باقي اللُغات الواسعة الانتشار، وهي في العادة لا تَسْتوفي كاملاً إلا شَرْطين يُضاف إليهما أحياناً وفي إطارِ مَحْدود شَرْطٍ أو شَرْطان.

ولعل السؤال الآن هو: كَيْفَ نَنْتَقِلُ بالعربية التي هي أمانَةٌ في عُنُقنا من مجموعَتِها إل مجموعة أعلى؟

يُمْكِنُ حَصرُ عوامل الصعود والهبوط في ثلاثة مَحاور:

الأول، كَمي بَحَث وناِتَج عن مُعادلة بسيطة بين عدد الناطقين بلُغةٍ ما ومساحة الأرض التي ينتشرون عليها، وقد يُفيد هنا عقد بَعْض المُقارنات المثيرة بين ثلاث لُغات هي: الفرنسية والعربية والصينية. أَضْعَفُهُم تَعْداداً من حيث عدد الناطقين الأصليين الفرنسية (أَقَلُّ من مائة مليون) تليها العربية (أَكْثَر من مائة مليون) وعدد الناطقين باللغتين تافه بالمقارنة بعدد الناطقين بالصينية. إلا أنَّ نِسبة الانتشار السياسي أي عدد الأقطار التي اختارت اللغة الفرنسية أو اللغة العربية كلغة رسمية أو سياسية ونسبة الإنتشار الجغرافي، أي رُقعة الأرض التي يَشغُلُها ويُسيطِرُ عليها الناطقون بهذه اللغة لِلغَتَيْنِ أعلى بكثير من النسب المماثلة لانتِشار اللغة الصينية حتى مع اعتبار المجتمعات الصينية القاطنة في المَهْجَر.

الثاني، قُدرة اللُغة على الخروج عن حدودها العِرْقِيَّة الأولى وانتشارها سياسياً وثقافياً ودينياً وعلمياً بِحُكم التبادل والاتصال وإكتساب المعلومات والمهارات. وهذا

يَسْتَتَبِعُ إتِّخَاذَ تَوْفِيقٍ شَدِيدٍ الصَّعُوبَةِ بَيْنَ مَوْقِفَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ: تَأْصِيلَ لِلْهُوِيَّةِ مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ فِي الدَّخَالِ، وَفَصْلَ كَامِلٍ بَيْنَ اللُّغَةِ وَأَبْعَادِهَا الْعِرْقِيَّةِ بَلْ وَالْقَوْمِيَّةِ فِي اسْتِخْدَامِهَا «مَعَ الْخَارِجِ».

الثالث، قدرة اللغة على الوفاء بشكل مُبَاشِرٍ وَسَهْلٍ وَمُحَبَّبٍ وَسَرِيعٍ بِمُنْتَطَلَبَاتِ النَّاظِقِينَ بِهَا دَاخِلَ رُقْعَةٍ إِنْتِشَارِهَا الرَّسْمِيَّةِ أَوْ الْفَعْلِيَّةِ.

المِحْوَرُ الْأَوَّلُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا بِهِ، فَهُوَ الثَّمَرَةُ الْمُبَاشِرَةُ لِتَحْرِيكِ الْحَرْبِ وَالسِّيَاسَةِ لِمَوْجَاتِ الْفَتْحِ وَالِاسْتِيطَانِ وَمَا تَمَخَّضَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ تَشْكِيلٍ لِمَوَازِينِ الْقُوَّةِ عَلَى مَدَى بَضْعَةِ قُرُونٍ. وَعَلَى أَيْ حَالٍ فَالْعَرَبِيَّةُ تَتَمَتَّعُ بِامْتِيَازٍ وَاضِحٍ بِالنَّظَرِ إِلَى مَقُومَاتِ هَذَا الْمِحْوَرِ فَلَا تَعُوزُهَا الثَّرْوَةُ الْبَشَرِيَّةُ وَلَا يَنْقُصُهَا الْعُمُقُ الْجُغْرَافِي أَوْ الْإِنْتِشَارُ السِّيَاسِي عِبْرَ تَعَدُّدِ الدُّوَلِ وَاخْتِلَافِ الْمَوْسِسَاتِ. إِلَّا أَنَّ هَذَا الْمِحْوَرِ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ لَيْسَ بِرُمْتِهِ كَافِيًا لِلتَّطَوُّرِ الْحَيَوِيِّ لِلُّغَةِ، كَمَا أَنَّ ضَعْفَهُ لَا يَمْنَعُ بِالضَّرُورَةِ اللُّغَةَ مِنْ أَدَاءِ وَظِيفَتِهَا، فَهَنَّاكَ لُغَاتٌ مَحْدُودَةُ الْإِنْتِشَارِ لَا تَسْتَنْدُ إِلَى تَعْدَادٍ بَشَرِي كَبِيرٍ، كَاللُّغَةِ الْمَجْرِيَّةِ (14 مليون أي حوالي عدد سكان القاهرة الكبرى وحدها) أَوْ الدَانِمَارَكِيَّةِ (5 مليون أي أكثر من سكان لبنان أو ليبيا) تُعَدُّ بِالرُّجُوعِ إِلَى عِدَّةٍ مَقَايِيسٍ أَكْثَرُ فَاعِلِيَّةٍ فِي مَسَاعَدَةِ النَّاظِقِينَ بِهَا عَلَى التَّرَوُّدِ بِأَسْبَابِ الْإِبْدَاعِ الْفِكْرِيِّ وَالتَّطَوُّرِ الْعِلْمِيِّ النَّظَرِيِّ وَالتَّطْبِيقِيِّ مِنْ عَدَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ مِنَ اللُّغَاتِ الْوَاسِعَةِ الْإِنْتِشَارِ وَمِنْهَا لِلْأَسْفِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ.

أَمَّا الْمِحْوَرَانِ الثَّانِي وَالثَّلَاثُ، فَالْتَّطَوُّرُ وَالتَّقَدُّمُ فِيهِمَا مُرْتَبِطٌ بِإِرْتِبَاطٍ وَثِيقٍ بِنَشَاطِ النَّاظِقِينَ بِاللُّغَةِ وَتَطَلُّعَاتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ أَوْ عُرُوفِهِمْ عَنْ رُبُطِ تَقَدُّمِهِمُ الْخَضَارِيِّ وَالْفَنِّيِّ وَالْعِلْمِيِّ بِشَقِيَّتِهِ النَّظَرِيِّ وَالتَّطْبِيقِيِّ بِإِنْتِمَائِهِمْ لِلُّغَةِ مَا.

الْخُلَاصَةُ مَعَ بَعْضِ الْمُقْتَرَحَاتِ

إِذَا سَلَّمْنَا بَأَنَّ صِيََاغَةَ الْفِكْرِ الْوَلِيدِ أَيْ كَانَ نَوْعُهُ، وَالْمُلَاحَظَةُ الْجَدِيدَةُ أَيْ كَانَ مَوْضُوعُهَا، وَالْوَصْفُ الْأَمِينُ الْقَابِلُ لِلتَّدَاوُلِ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنَ الشَّفَافِيَّةِ وَأَقْلَ قَدَرٍ مِنَ التَّحْرِيفِ، تَفْتَرِضُ تَجَانُسًا قَوِيًّا بَيْنَ الْمَصَادِرِ الْمَرْجِعِيَّةِ لِلخَيَالِ وَالشُّعُورِ وَالتَّفَكِيرِ وَالتَّقْيِيمِ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَالْأَدَوَاتِ الْمَادِيَّةِ لِلتَّعْبِيرِ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى، وَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّ تَنَامِي هَذَا التَّجَانُسِ وَثِيقُ الصِّلَةِ بِكَيْفِيَّةِ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْأُمِّ وَمَا يُصَاحِبُهَا وَيُعْضِدُهَا مِنْ لُغَاتٍ أَوْ لَهْجَاتٍ تَسْتَمِدُّ شَرْعِيَّتَهَا مِنْ دَائِرَةِ الْإِنْتِمَاءِ، فَإِنَّمَا نَخْلِصُ لَا مَحَالٍ إِلَى أَنَّ الصِّيَاغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْخَالِصَةَ لِفِكْرِنَا وَعِلْمِنَا وَخَيَالِنَا وَوَصْفِنَا لِشَيْءٍ مُمَارَسَاتِنَا لَيْسَتْ تَرَفًا أَوْ دَرْبًا مِنَ التَّعَصُّبِ أَوْ الْإِنْجِيَاظِ غَيْرِ الْعَقْلَانِي لِثِقَافَةٍ عَلَى حِسَابِ ثِقَافَاتٍ أُخْرَى، وَإِنَّمَا هِيَ الشَّرْطُ الْمَوْسُسُ عُضُويًّا وَبَنِيويًّا لِانْفِتَاحِنَا عَلَى دُنْيَا التَّجْدِيدِ وَبَحْنِ مَلْمُونٍ بِأَبْعَادِهَا الْحَقِيقِيَّةِ وَوَاوَعُونَ بِالدُّورِ الَّذِي يُمَكِّنُنَا أَنْ نُلْعَبَهُ فِيهَا مِنْ مُنْطَلَقٍ مَصَالِحِنَا الَّتِي لَا نَخْتَارُهَا كَافَرًا مُنْعَزِلِينَ بِقَدَرِ مَا تَفَرِّضُهُ عَلَيْنَا طَبِيعَةُ وَجُودِنَا بِمَا لَهَا مِنْ مُكَوِّنَاتٍ

جُغْرَافِيَّةٌ وَقَوْمِيَّةٌ وَدِينِيَّةٌ وَعِرْقِيَّةٌ وَلُغَوِيَّةٌ يَضَعُ عَلَى مُعْظَمِنَا التَّنَصُّلَ مِنْهَا.
ما الْعَمَلُ؟

ما كَانَ لِلْقُرْآنِ أَنْ يَغْتَبِرَ طَلَبَ الْعِلْمِ نَوْعاً مِنَ الْجِهَادِ أَوْ أَنْ يُلْقَى مَسْئُولِيَّةُ الرُّجُوعِ لِلْحَقِّ وَكَشْفِ عَظَمَةِ الْكَوْنِ عَلَى عَاتِقِ ذَوِي الْأَلْبَابِ، أَوْ أَنْ يُفْرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِ تَحْكِيمُ فَهْمِهِ الْمُخْلِصِ وَالْمُجَرَّدِ مِنَ الْهَوَى لِكِتَابِ اللَّهِ حِينَ تَشْتَبِهَ عَلَيْهِ الْأُمُورُ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَقُّ سُبُلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ إِدْرَاكاً أَوْ تَطْبِيقاً هُوَ النَّشَاطُ الْأَعْظَمُ الَّذِي تَنْدَرِجُ مِنْهُ جَمِيعُ الْأَنْشِطَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأُخْرَى أَيَّ كَانَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ هَدَفُهَا.

صِيَاغَةُ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ الَّتِي تَطْبَعُ بِهَا الْإِنْسَانُ يَطْبَعُ الْعِلْمَ فِي الْإِنْسَانِ وَيَرْفَعُ عَنْهُ الْكَثِيرَ مِنْ مَشَقَّةِ الْجَهْدِ فِي طَلَبِهِ.

لِذَا كَانَ لِإِذَا عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا حَقّاً مُتَمَسِّكِينَ بِتَحْقِيقِ أَكْمَلِ تَصَوُّرٍ لِإِنْسَانِيَاتِنَا وَإِنْسَانِيَّةِ أَبْنَانِنَا أَنْ:

1 - نُعْطِيَ الْأَوَّلِيَّةَ الْمُطْلَقَةَ فِي كَافَةِ مَجَالَاتِ الْمَعْرِفَةِ لِلْعُلُومِ الْبَحْثَةِ، وَأَنْ نَصُوعَ الْفِكْرَ الْبَحْثِ صِيَاغَةً عَرَبِيَّةً مَرْجِعِيَّةً حَدِيثَةً وَوَاضِحَةً يُمَكِّنُ الْإِسْتِنَادَ إِلَيْهَا عِنْدَ إِعْمَالِ الْفِكْرِ فِي حَلِّ مُشْكَلَةٍ نَظَرِيَّةٍ أَوْ تَطْبِيقِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ.

2 - نُكَنِّفُ اسْتِخْدَامَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمُمَارَسَاتِ الَّتِي تَهْدَفُ إِلَى إِكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَعْلُومَاتِ وَفِي وَصْفِ وَسَائِلِ وَأَنْشِطَةِ الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ، وَذَلِكَ مِنْذُ الْمَرَاكِلِ الْأُولَى لِلدِّرَاسَةِ وَأَنْ يَتِمَّ اسْتِخْدَامُ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ الَّتِي نَتَعَلَّمُهَا فِي الْمَرَاكِلِ اللَّاحِقَةِ مِنْ مُنْطَلَقِ مُمَارَسَتِنَا لِلْعَرَبِيَّةِ وَلَيْسَ الْعَكْسُ.

3 - التَّوَعِيَّةُ فِي مَرَاكِلِ التَّعْلِيمِ كَافَةً فِي الْعُلُومِ كَافَةً بِعِلَاقَةِ الْفِكْرِ بِاللُّغَةِ الَّتِي يُصَاغُ بِهَا.

4 - اعْتِبَارَ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْأَجْنِبِيَّةِ اسْتِخْدَاماً سَلِيماً وَفَعَالاً وَسِيلَةً لِإِثْرَاءِ وَتَثْبِيتِ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلَيْسَ خُرُوجاً عَنْهَا أَوْ هُرُوباً مِنْهَا. مِمَّا يُحْتَمُّ أَنْ يَقْتَرَنَ دَفْعُ كِفَاةِ تَعْلِيمِ اللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ بِوَضْعِهَا فِي مَكَانِهَا وَالتَّوَعِيَّةُ بِالسِّيَاقِ الدَّقِيقِ لاسْتِخْدَامِهَا مَحَلِّياً وَدَوْلِيّاً وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى هَذَا الْاسْتِخْدَامِ مِنْ أَثَارٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ سِوَا مَا كَانَ مِنْهَا إِيْجَابِيّاً أَوْ مَا كَانَ سَلْبِيّاً.

5 - عَدَمُ التَّخَوُّفِ مِنْ دِرَاسَةِ اللِّهْجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَمِنْ فَلَاسَفَةٍ وَتَقْنِينِ أَوْجِهٍ اخْتِلَافِهَا وَالتَّقَائُفِ ثُمَّ مَقَارَنَتِهَا بِبَعْضِهَا وَبِمُخْتَلَفِ مُسْتَوِيَّاتِ الْفُصْحَى، فَقُوَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَكْمُنُ أَيْضاً فِي طَوَاعِيَّتِهَا لِإِقْرَاءِ مُتَعَدِّدَةٍ وَمُسْتَوِيَّاتِ مُتَبَايِنَةٍ دُونَ الْمَسَاسِ مَسَاساً جَوْهَرِيّاً بِوَاحِدَةٍ هُوِيَّتِهَا.